وقفة مع حسن حنفي

من القصد إلى الفعل: محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي

محمد بن سمينة*

ألقى الدكتور حسن حنفي ضمن الملتقى الدولي حول فكر مالك بن نبي محاضرة بعنوان: **من القصد إلى الفعل: محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك**، ولعل من أبرز ما تميزت به هذه المحاضرة: منهجية الطرح وعمق التحليل ووفرة الأفكار وحسن الإلقاء المشوب باللهجة الخطابية التي تزوده بشحنة من فاعلية التأثير على نفوس المتلقين وهذه السمة الأخيرة بخاصة يبدو أن إخواننا في أرض (النيل) يتوفرون على قدر منها أكبر مما يتوفر عليه من ذلك غيرهم من أبناء العربية في جميع أقطارهم، ولعل لماء النيل أثرا في ذلك.

* أستاذ بجامعة الجزائر.

وقد تميزت هذه المحاضرة ــ إلى جانب ذلك ــ بجملة من الإيماءات، ولربما هي غمزات أكثر منها إيماءات وإثارات، من بينها:

ــ المطالبة من المخاطبين بالانتقال من المدح إلى الفعل.

ــ التوجه بالخطاب إلى (أحفاد مالك).

ــ الزعم بأن معظم أعمال مالك مقالات صحفية.

ــ القول بطغيان النــزعة الإنشائية في كتابات مالك.

ــ الإشارة إلى إهداء مالك كتبه إلى بعض الشخصيات.

ــ الزعم بأن مالك يعنى بقضايا بلده أكثر من عنايته بقضايا بلاد المسلمين.

ــ الادعاء بمحاولة الأستاذ مالك التسجيل في شهادة (الدكتوراه) وفشله في ذلك.

ــ عدم تزويد الحضور بنسخة من هذه المحاضرة.

هذه هي أهم الهمزات أو اللمزات التي تضمنتها محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي ويتجلى بعض ذلك بدءا من عنوانها (من القصد إلى الفعل..) وإن المتأمل في العنوان كاملا، قد يستشف بعض ما يومئ إليه ذلك العنوان من معاني، نجتزئ بالإشارة إلى اثنين منها: أما الأولى فلربما يراد منها الإشارة إلى أن بعض الناس يقصدون، يريدون، يتمنون... ولكنهم لا يحركون ساكنا ولا يعملون عملا جادا، مكتفين فحسب بالأماني والتعلات والأحلام.

ولعل من بين من تعنيهم بالخطاب هذه الإشارة هم (الحضور).

أما الثانية فلعل دلالتها تبرز من خلال الجزء الثاني من العنوان وهو (... محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي) مما قد يراد به من أن تناول مالك لهذه المشكلات كان ناقصا ومن ثم فإن ما أقامه من بناء في هذا الميدان، يحتاج إلى غير قليل من التقويم والتصويب وإعادة البناء !

ونخلص من هذه الوقفة العجلى عند بعض ما يمكن أن يكون قد رمز إليه ما جاء في عنوان المحاضرة من دلالات، إلى ما جاء من ذلك في صلب هذه المحاضرة، فماذا عن ذلك؟ وما الأثر الذي يريد أن يتركه الأستاذ المحاضر في نفوس الحضور؟

يمكن الإجابة عن ذلك من خلال مناقشة تدفعها رغبة ملحة إلى الاقتراب من وجه الحقيقة في هذه الإشكالية خدمة للعلم، ولا تتوخى شيئا آخر غير ذلك:

١ـــ لقد استهل الأستاذ محاضرته مطالبا بالانتقال من (المدح إلى الفعل):

وقد ألح حضرته على هذا الطلب بما يوحي أنه يظن أن الجزائريين ـــ وهم يحيون هذه الذكرى الثلاثين لأحد رجالاهم بعد ثلاثين سنة على انتقاله إلى رحمة الله ـــ قد ذهبوا في مدحه بعيدا وبالغوا في إطرائه أكثر من اللازم، يقول ذلك بلهجة يمكن أن يستشف منها المتأمل في بنيتها وطريقة أدائها، أن حضرة الأستاذ قد جانبه وجه الصواب في هذه القضية، كما يبرز ذلك من نحو آخر، أنه غير ملم بما فيه الكفاية بما يتصل بالظروف والملابسات التي كانت تكتنف مسيرة الفقيد الذي قضى معظم مراحل حياته في دائرة تكاد تكون مغلقة، تحيط بها أسوار التعتيم من كل الجوانب، وتخيم على ساحتها غيوم النسيان من كل الجهات، لقد عاش مالك ـــ رحمه الله ـــ حيا وميتا في هذه الأجواء المكفهرة بالغيوم، المدلهمة بالضباب، كما أن أعماله ظلت زمنا طويلا بعيدة عن التداول في الساحة الثقافية في بلاده، قليلة التناول من طرف أبناء شعبه من المتعلمين بله غيرهم، ذلك أن هذه الأعمال لم تعرف طريقها إلى النور بينهم إلا في حدود جد ضيقة، ما كانت تأخذ حقها من الدرس والنشر، لو لم يقيض الله لها من عني بها ممن عرف قيمتها العلمية فأخرجها إلى النور من إخواننا بالمشرق العربي، وبخاصة في مصر وسورية ولبنان، وبعض البلاد الإسلامية، خاصة منها (ماليزيا). لولا هذه العناية الإلهية لظل الكثير من أعمال مالك مجهولا لدى أهله وذويه قبل غيرهم.

وإذن فأين ما نال مالك من ذويه الأقربين من عناية ومدح وإطراء، وقد رأينا أنه عاش على تلك الصورة التي رأينا بين غالبيتهم مجهولا مغمورا، وغير معروف إلا في أوساط ضيقة لدى بعض الخاصة منهم على وجه الخصوص؟

فكيف إذن وهذه هي حال الفقيد مالك، وحال أعماله في بلده وبين عشيرته، ويأتي من يستكثر على مالك أن تحيي بلده ذكرى رحيله بعد مرور ثلاثين عاما على ذلك الرحيل، كما يستكثر هؤلاء المستكثرون أيضا أن يلتقي بعض تلامذته وقرائه ودارسيه من داخل الجزائر ومن خارجها بعد ثلاثين عاما على رحيله ليحيوا ذكراه، وليتبادلوا الرأي حول أفكاره، ويتدارسوا أعماله فيما بينهم، وبين عامة جمهور قرائه، وليتعاونوا على توطيد أسباب الصلة بينه وبينهم كما تكون هذه الصلة عادة ـــ تقديرا ومحبة ووفاء ـــ بين التلامذة وبين أستاذهم ومعلمهم.

ويبلغ الغلو مبلغه بأولئك المستكثرين (ذاك القليل)، مما أبداه إخوان مالك وبنوه وأحفاده نحوه من وفاء وتكريم وثناء! ومهما يكن مما وصلت إليه تلك المعاني من درجة على سلم هذه القيم النبيلة، فإن ذلك سيبقى قليلا في حق ذاك الذي أعطى من عقله وقلبه إلى أمته والإنسانية من قبل ومن بعد (الكثير)، ومع ذلك يأتي من يطلب من الجزائريين أن يقتصدوا في التفضل بذاك (القليل) لمن أعطى (الكثير)، فيطلبون من الجزائريين: القصد في ذلك، القصد، القصد أيها الجزائريون، فقد ذهبتم بحبكم ووفائكم وتكريمكم لأحد أعلامكم (أعلام الأمة) وإحيائكم لذكراه لأول مرة بعد ثلاثين عاما على رحيله، لقد ذهبتم بذلك بعيدا.. بعيدا.. بعيدا..!؟

٢ـــ كان حضرة الأستاذ قد توجه بالخطاب في مداخلته تلك، إلى من أسماهم (أحفاد مالك) وقد كرر هذه العبارة في محاضرته أكثر من مرة، يترجى بها من أولئك (الأحفاد) أن يعملوا شيئا على طريق العلم والفكر، وكأنه يريد أن يومئ بذلك إلى أن من سبق هؤلاء الأحفاد لم يكن لهم في ذلك الميدان ما يذكر فيشكر!

فمن هم هؤلاء (أحفاد مالك؟) وما دلالة هذه العبارة في هذا المقام؟ وما هي الرسالة التي يريد حضرة الأستاذ أن يوصلها من خلال ذلك إلى هؤلاء الأحفاد؟

يظهر أن الأستاذ يقصد بتلك العبارة:(أحفاد مالك) الجيل الثالث من بعد مالك، إذ أن هناك (جيل مالك) و(جيل الأبناء) ثم يأتي من بعد ذلك (جيل الأحفاد)، وكأن الأستاذ يريد بذلك أن يومئ إلى أن المجهود العلمي للجيلين: الأول والثاني، جيل مالك، و(جيل الأبناء) الذين يمثلون (الزمن الحاضر) من الجزائريين، إن جميع أو معظم من يمثل هذين الجيلين، لم يتحقق ـــ من خلال ما يفهم من كلام حضرة الأستاذ ـــ على أيديهم في المجال العلمي والفكري بخاصة، وغير ذلك من المجالات الأخرى ما يمكن أن يسمو إلى الدرجة المطلوبة، وإن كان بالإمكان أن يتحقق شيء من ذلك في يوم من الأيام، فقد يكون ذلك على أيدي أولئك الأحفاد (أحفاد مالك).

ويترتب على هذه التخمينات أن ينتظر الشعب الجزائري حوالي ربع قرن من الزمن حتى يظهر من بين أفراده ـــ أحفاد مالك ـــ هؤلاء الذين لعلهم يستطيعون أن يفعلوا شيئا في ميدان العلم والمعرفة، لعلهم وعساهم!

ومما يمكن أن يستنتج من هذه التأويلات أن نظرة الأستاذ إلى هذه الإشكالية تطغى عليها نزعة تشاؤمية من حاضر الجزائر ومن مستقبلها، وسبحان الله الذي لا يعلم الغيب سواه.

ومهما يكن من ذلك، فإن الجزائريين ـــ على أية حال ـــ لم يزعموا يوما أنهم وصلوا إلى غايتهم على طريق جهادهم في طلب العلم، وهم مؤمنون إيمانا صادقا بقول ربهم، رب العالمين في كتابه العزيز: «وقل رب زدني علما» (طه: ١١٤).

وحسبهم أن نيتهم معقودة على حب الخير وفعله، وأن قلوبهم عامرة بالتفاؤل والأمل وأن طموحهم كبير، وأن ثقتهم أكبر، في عون الله وتوفيقه لهم على السير في هذا

الطريق اعتزازا بماضيهم وسموا بحاضرهم، واستشرافا لما يشرق من بعده ـــ إن شاء الله ـــ من مستقبل عزيز كريم.

٣ـــ يرى حضرة الأستاذ أن أعمال (مالك) لا تزيد عن كونها مجموعة مقالات صحفية! فما ذا يريد حضرته من هذا الحكم؟ وما يمكن أن يستنتج منه؟

يبدو أن المقصود من هذه (الغمزة) أن يشيع صاحبها بين الحضور أن أعمال مالك من قبيل ما يكتب في الصحافة السيارة، وهي من ثم لا ترقى إلى مستوى الأبحاث العلمية الأكاديمية المعمقة، وما ذاك إلا لأنها كتابات صحفية، لا يمكنها أن تتجاوز هذه الحدود وتتطلع إلى مستوى تلك الدراسات العلمية الرفيعة التي يكتبها (بعضهم) في جامعاتنا العربية، تلك الجامعات (الهياكل) المترامية الأطراف هنا وهنالك في أرضنا العربية، ولكنها من حيث النتاج العلمي والنشاط الفكري ليس لها ـــ لأسباب متعددة ـــ ذلك الدور العلمي الذي نهضت وتنهض به كثير من الجامعات في العالم، ذات الفاعلية في حركة الحياة العامة في الأمم المتطورة، بما جعل إسهام معظم جامعاتنا العربية عمليا وعلميا في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وحركة التطور العلمي، والتحكم في وسائل التقنية الحديثة محدودا جدا، بالمقارنة مع ما تخرجه للناس دوريا الجامعات الأخرى في العالم من مختلف الابتكارات والمنتجات الحضارية، وقد انعكس ذلك الاعتلال وذلك الهزال اللذين أصابا جامعاتنا على صورتها العلمية في المحافل الأكاديمية العالمية، فبدت باهتة مغيمة، كما انعكس ذلك على صوتها فيما يجري في تلك المحافل من حوارات ومناقشات، فكان خافتا ومبحوحا حتى لا يكاد يبين.

وماذا بعد يضير الأعمال الجادة العميقة كأبحاث الفقيد مالك أن تنشر في بعض الدوريات أو الصحف، والحال أن نشر أعمال أي باحث أو مفكر أو عالم في بعض الصحف لا ينقص في حد ذاته من القيمة العلمية لها، لدى الباحثين المنصفين، إذا كانت هذه الأعمال في جوهرها كذلك بمحتواها وبمنهجها وبطرق المعالجة المطبقة

فيها. وإن الأمثلة على هذه الحقيقة عديدة في سجلات التاريخ وفي جنبات الحاضر وفي أكثر من نموذج. من ذلك أن بعض العلماء المحققين وبعض المفكرين المستنيرين، كانوا قد نشروا بعض أعمالهم بدءا في الصحف، ثم أخذت تلك الأعمال مكانها في بعض المراجع التي تعنى بمعالجة بعض القضايا الفكرية العميقة والنظريات العلمية الطموحة، مما خولها بأن تكون منطلقا للدارسين في أبحاثهم، فوصلوا على نهج فروضها إلى آراء فكرية عميقة وضوابط علمية جادة.

ومن أقرب الأمثلة على ذلك من زماننا، ومن بلاد الغرب، أجل من بلاد الغرب، لأن بعض من يسمون أنفسهم في بلادنا العربية (بالمفكرين المستنيرين) لا ينكسون رؤوسهم منبهرين ومشدوهين إلا أمام كل ما يفد علينا من (الغرب) مادة كان ذلك أو معنى، ولعل من أقرب هذه الأمثلة إلينا، على ذلك، ذاك المقال الذي نشره المفكر الأمريكي (هنتغتون/Huntington) في الصحف بعنوان (صراع الحضارات)، أو المقال الذي نشره المفكر الياباني أصلا الأمريكي موطنا (فرانسيس فوكوياما) حول فكرة (نهاية التاريخ).

وقد ظهرت هاتان الفكرتان أول ما ظهرتا على صفحات الجرائد، ثم انتقلتا منها إلى صفحات الكتب، فصارتا من المرجعيات الفكرية التي انطلق منها الباحثون في دراسة تطورات آفاق مستقبل الحضارة الإنسانية.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، أو ما يقرب من ذلك ــ ولكن من محيطنا هذه المرة ــ ما تفتقت عنه قرائح بعض أعلام أمتنا في مطلع هذا العصر، من أبحاث هامة في قضايا الفكر والاجتماع والسياسة والأدب، وكانت تلك الأبحاث قد ظهرت أول ما ظهرت أيضا في بعض صحف تلك الفترة من أهمها: مجلة (العروة الوثقى) التي كان قد أصدرها المصلحان الكبيران: (الأفغاني ومحمد عبده) في بلاد الغرب في (فرنسا) بتاريخ (١٣ مارس ١٨٨٤م) وتوقفت بعد صدور عددها الأخير يوم (١٧ أكتوبر ١٨٨٤) ثم مجلة (المنار) التي أصدرها

المصلح الكبير (محمد رشيد رضا) في مصر بتاريخ (١٥ مارس ١٨٨٦) واستمرت في الصدور إلى وفاته (١٩٣٥) ثم مجلة (الرسالة) التي أصدرها الأديب الكبير (أحمد حسن الزيات) في مصر بتاريخ (١٠ جانفي ١٩٣٢) وصدر العدد الأخير منها في (ديسمبر ١٩٥٢). وغير ذلك من الصحف والمجلات المشرقية.

وكان من أثر ما نشر أولئك الأعلام الرواد وغيرهم في تلك الدوريات من أبحاث قيمة وأفكار صائبة.

وعلى هذا الدرب، وفي أحضان مثل تلك الصحف، تتابعت إنجازات الرعيل الثاني من أعلام النهضة الفكرية والأدبية في المشرق، من أمثال: الرافعي والعقاد والزيات وطه حسين وهيكل والمازني وغيرهم.

ويمكن أن يتجلى هذا المثال عندنا في الجزائر، فيما كان قد نشره أعلام النهضة الوطنية: مصلحين وأدباء وسياسيين، من أعمال في صحف مرحلة النهضة، وبخاصة منها: (المنتقد) التي أصدرها الإمام عبد الحميد بن باديس، رائد النهضة الوطنية، بتاريخ (١٩٢٥/٠٧/٠٢) فكانت الفاتحة الميمونة والانطلاقة الرشيدة على درب النهضة الوطنية العامة، إلا أن المحتلين لم يطمئنوا لظهور (المنتقد)، ولم يرقهم منهجها الوطني الحضاري، ولم يطيقوا صبرا على توجهاتها الوطنية، وما تستهدفه من مرام وأهداف حضارية، فسارعوا إلى وأدها وهي في المهد صبية بنت شهرين وعشرة أيام، فلم تكتحل عيناها بمرأى التضحيات التي أرست الطريق أمامها لترى نور الحياة، ولا اكتحلت عيون الأمة بضيائها لأكثر من ثمانية عشر عددا فكانت هذه الثمانية عشر عددا "في بنيان النهضة ثمانية عشر سندا".[٢]

وإنه لمن المصادفات العجيبة في هذا المضمار أن يكون مصير (المنتقد) كمصير (العروة الوثقى) التي كان الفرنسيون في باريس من قبل، قد ضاقوا بتوجهاتها

---

[٢] ابن باديس: مجلة الشهاب ج١ م٥ (أفريل: نيسان ١٩٣٥)

وبأهدافها ذرعا، فأوقفوها هي الأخرى، ولم يتجاوز عمرها (كالمنتقد) ثمانية عشر عددا.

بيد أن هذه السياسة الجائرة لم تثن عزم ابن باديس على مواصلة جهاده في هذا الميدان، فلم يلبث أن أصدر (الشهاب) في السنة نفسها (١٩٢٥/٠٩/١٢) فأحيا الله بها (المنتقد الشهيدة) وحفظها وأطال في عمرها، فاستمرت في الظهور إلى (أوت ١٩٣٩) كما لم تثن تلك السياسة الجائرة نفسها من قبل، الشيخ محمد رشيد رضا على أن يواصل مسيرة شيخه محمد عبده وأستاذ شيخه السيد جمال الدين الأفغاني فيصدر (المنار) على طريق العروة الوثقى بعد مرور حوالي عامين على توقفها.

كما أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأول مرة سنة ١٩٣٣ ثلاث صحف هي (السنة، الشريعة، الصراط) كانت فرنسا (بلد الحرية والحقوق الإنسانية!) قد استقبلت هذه الجرائد الثلاث (بتوقيفها) تباعا الواحدة تلو الأخرى، ولم يمض على ميلاد كل منها أشهر، كما لم تعمر جميعها أكثر من حول واحد. ثم أعادت الجمعية الكرة من جديد فدخلت الميدان الإعلامي سنة ١٩٣٥ بإصدارها جريدة (البصائر) في (شهر ديسمبر) من هذا العام، بيد أن المحتلين قد أذاقوها كسابقاتها مرارة المصادرة مرتين، إلا أنها استأنفت الصدور من بعد رحيلهم من البلاد، وهاهي تواصل جهادها في الوقت الحاضر، على نهج مؤسسيها الأوائل.

وقد كان إلى جانب المنتقد والشهاب والبصائر مجموعة أخرى من الصحف الوطنية، وقد اضطلعت جميعها برسالة النهضة الحديثة في الجزائر.

وقد كانت الأبحاث القيمة والأفكار الصائبة والتوجيهات السديدة التي كان ينشرها أعلام النهضة الوطنية في الجزائر في تلك الصحف الوطنية قد أوقدت جذوة اليقظة، وأرست أسس النهضة العامة، وأحيت الأمة بعد أن كانت قد أقبرت أو تكاد، وبعثت في روحها شرارة اليقظة بعد أن أوشكت أن تخمد في صدرها جذوة الحياة،

ووضعت يديها على شروط النهضة ورسمت الطريق أمامها نحو الثورة والتحرر. فكانت تلك الأعمال ومثيلاتها هي المهاد إلى ثورة نوفمبر المباركة التي دكت ملاحم أبطالها الميامين حصون الظالمين، وأجلت تضحيات شهدائها الأبرار فلول الغزاة من أرض الوطن صاغرين مدحورين.

ويدلي (شاهد القرن) الأستاذ مالك بن نبي نفسه بشهادته في هذا المضمار فيقول: "لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس)، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك، ويالها من يقظة جميلة مباركة".[٣]

ومما يمكن أن يخلص إليه البحث في هذه الفقرة أن العمل العلمي الجاد والجهد الفكري الأصيل ليس بضارهما وليس بناقص من قيمتهما، أن ينشرا في الصحف الجادة، وكم من بحث كان أجدى وأنجع على حركة النهضة الفكرية الإنسانية وعملية تطورها العام، من مجلدات جمعت بين صفحاتها ركاما من التهويمات والأهواء، وكانت بذلك أداة في نشر الأفكار المثبطة بين أجيال الأمة.

٤ ـ الادعاء بغلبة النزعة الإنشائية على كتابات مالك: يزعم حضرة الأستاذ أن كتابات مالك إنما تغلب عليها النزعة الإنشائية، ويطلق حضرته هذا الحكم (بأسلوب إنشائي) من دون تعليل أو تحديد، أو تمثيل، فهو لم يحدد في أي الجوانب من جوانب كتابات مالك تظهر هذه النزعة الإنشائية؟ كأن يوضح هل هي بادية في مضمون تلك الكتابات، أم في صورها التعبيرية؟

ويمكنك أيها القارئ الكريم أن تصل إلى وجه الصواب في هذه الإشكالية، من دون أن تذهب إلى أبعد مما تختزنه ذاكرة تلميذ في المرحلة الثانوية من قواعد في (علم المعاني) من (علوم البلاغة)، تمييزا بين سمات الأسلوب الإنشائي (الأدبي)، وبين

---

[٣] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين(دمشق: دار الفكر، ط٣، ١٩٦٩) ص٣٠.

خصائص الأسلوب العلمي وغيره من خصائص أساليب الكتابة في اللغة العربية من نحو، وبين الموضوعات التي يصلح لها هذا الأسلوب، أو ذاك، والتي يصلح لها سواهما من الأساليب من نحو ثان.

وإن من يستحضر ذلك يدرك أن الأسلوب الإنشائي هو الصورة اللفظية الملائمة للتعبير عن الحالة النفسية المشحونة بالانفعالات والمشاعر الوجدانية والمواقف الخطابية وما إلى ذلك، مما يتوخى من خلاله الكاتب الوصول إلى هدفه في الإثارة والإمتاع.

ويتضح مما تقدم أن هذا الأسلوب بتلك الخصائص المميزة له، إنما هو أبعد ما يكون عن الموضوعات العلمية التي تستدعي ما يتميز به الأسلوب العلمي من سمات، يأتي في مقدمتها: القرب والوضوح والدقة والتركيز وما إلى ذلك، مما يستهدف به التوعية والتوجيه، والإفادة والإقناع، وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكن للدارس أن يثير هذا السؤال الآتي: أي من الهدفين السابقين، كان الأستاذ مالك المفكر يتوخى في كتاباته؟ وأي الأسلوبين أكثر ملاءمة لذلك؟

لعل من أبرز ما يميز اهتمامات مالك في كتابات أنه لا ينطلق فيها من حالات شعورية طارئة تغذيها بعض الانفعالات الذاتية والحوافز الشخصية، بهدف التعبير عن بعض الخلجات النفسية وبعض الإثارات الوجدانية، مما يستدعي من وجوه الصياغة ما يوائم ذلك من ألوان الأسلوب الإنشائي الخطابي، وإنما كان أبرز ما تركز عليه كتاباته أنها تعالج قضايا فكرية ومسائل علمية تتسم بطابع فكري واضح، وتقوم على النظر العميق والتحليل الدقيق، وهي بذلك أبعد ما تكون عن الانفعالات والوجدانيات والأدبيات، هذه الألوان النفسية التي تستدعي من أدوات الصياغة الفنية ما يعد من أبرز ما يميز خصائص الأسلوب الأدبي (الإنشائي).

ومن ثم جاءت صورة التعبير في كتابات مالك، وأهم ما يميزها الميل إلى الألفاظ الحقيقية القريبة، والتراكيب الواضحة الدقيقة، والزهد فيما يتصل بمظاهر التأنق

اللفظي، والعزوف عن استخدام الخيال والمحسنات، وغني عن البيان أن هذه الخصائص، إنما هي من بعض ما يميز الأسلوب العلمي من سمات.

وقد يصل بالأستاذ مالك في بعض الأحيان هذا الميل إلى الإكثار من استخدام خصائص هذا الأسلوب العلمي في كتاباته إلى حد بلوغه في ذلك مبلغا يضطره إلى أن يستعير في بعض كتاباته بعض المصطلحات من بعض العلوم الدقيقة (الرياضيات) وغيرها، ليقرر بذلك بعض الحقائق العلمية: النفسية أو الاجتماعية أو غيرها، وقد يجعل ذلك بعض قرائه يلقون شيئا من العسر في فهم بعض أفكاره وتحليلاته من خلال ما يغلب أحيانا على بعض كتاباته من روح علمية ونزعة عقلية وبرودة عاطفية، وغير ذلك مما يميز الطابع العلمي في الكتابة من ميل إلى التروي والأناة والدقة والتركيز.

وهل بقي بعد هذا البيان ما يعطي لآراء من يزعم أن كتابات مالك يطغى عليها الطابع الإنشائي قدرا ــ ولو ضئيلا ــ من المصداقية تمكنها من الصمود أمام ما وصل إليه القارئ عن طريق التحليل والتعليل، والحجة والتمثيل، من بيان و برهان في هذه الإشكالية.

٥ــ أشار حضرة الأستاذ إلى قضية إهداء (مالك) كتبه إلى بعض الشخصيات وكأنه يريد بذلك أن يومئ إلى شيء ما؟

يمكن الوقوف عند هذه الغمزة بدءا بالتذكير بأن مالك لم يقم بإهداء ما أهدى من أعماله لمن أهداها لهم ــ وقد أغناه المغني عن جميع الفقراء إلى الله ــ تزلفا وتملقا وطمعا، أي من أجل أن ينال رضى حضرة هذا أو يتملق ــ حاشاه ــ جناب ذاك، أو طمعا فيما في أيدي هذا وذاك أو فيما في أيدي من سواهما من الناس، وإنما أهدى ما أهدى لمن أهدى، رغبة منه في تقديم بعض وجوه النصح والإرشاد ــ قياما منه بواجب أمثاله من العلماء والمفكرين ــ لمن يستحق ذلك، ممن بأيديهم مقاليد أمور

المسلمين، تقديرا لمواقفهم، وتثمينا لجهودهم في حسن قيادة مسيرة الأمة وخدمة قضاياها، و الغيرة على مصالحها.

وهو لم يفعل ذلك ـــ على أية حال ـــ من نحو آخر، تقربا بأعماله أو بمواقفه من أعداء الأمة القدامى والمعاصرين، بل ظل طوال نضاله يقف من هؤلاء الموقف الذي يشرفه ويشرف أمته توعية لها بمكائدهم، وتحذيرا لها من مكرهم، وتعضيدا لصراعها معهم.

٦ ـــ الزعم بأن مالك يعنى بقضايا بلده أكثر مما يعنى بمشكلات المسلمين: يذهب حضرة الأستاذ إلى أن اهتمامات مالك في أعماله توشك أن تقتصر على حدود بلده الجزائر، ولا تكاد تتجاوز ذلك إلى العناية بشؤون المسلمين بالقدر المطلوب.

ويمكن أن يتركز النقاش حول هذا الحكم في الوجوه التالية:

أ ـــ نبادر بالقول أن من ينعم النظر في هذا الحكم يدرك أنه لا يقوى على الثبات أمام ما قد يدحضه من حقائق التاريخ ومن شواهد الحاضر، ويكفي القارئ في ذلك أن يعود إلى ما سبق أن تبينه من خلال وقوفه في هذا العمل عند إسهامات المشاركين الضيوف في الملتقى، مما يكون قد سمح له بأن يعرف من أن قراء مالك وتلامذته ودارسيه منتشرون، ليس على امتداد العالم العربي الإسلامي فحسب، وإنما هم متواجدون في غيره من بلاد العالم، وأن أفكاره وأعماله استطاعت أن ترحل إلى بعيد، فتصل إلى حيث وصلت كتائب جند الفتح الإسلامي في القرون الأولى للإسلام، من أراضي إفريقيا وآسيا وأوربا وغيرها، حاملة إلى الناس كافة رسالة الإسلام العالمية.

ب ـــ تحسن الإشارة إلى أن مالك ليس هو الوحيد من بين أعلام الإسلام الذين حاولت دوائر الغزو الفكري في هذا العصر ـــ وما تزال ـــ أن تنال من مكانتهم العلمية ومن مواقفهم الجهادية وتعمل على تضييق الخناق في وجه حركة أفكارهم والتقليل من قيمة أعمالهم، وتقوم بتهميشهم والتعتيم عليهم. وممن استهدفته تلك الدوائر من الجزائريين إلى جانب مالك كثيرين، فقد فعلت ذلك مع الأمير عبد القادر

قائد المقاومة الوطنية ضد الغزاة الفرنسيين، و مع قادة الثورات الوطنية المتعاقبة طوال تاريخ الكفاح الوطني من ثورة الأمير، إلى ثورة نوفمبر التحرير، ومع الأمير خالد رائد حركة الجهاد السياسي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، والإمام عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الوطنية الحضارية، وغير هؤلاء من زعماء الحركة الوطنية وقادة ثورة نوفمبر المجيدة.

لقد حاولت تلك الدوائر أن تنال من سمعة هؤلاء في بلادهم وفي غير بلادهم، ولكن جميع تلك المحاولات الماكرة قد باءت بالفشل الذريع.

ج ــ إن حقيقة المشاركة المتواضعة للباحثين المحليين هذا الملتقى، بالموازنة مع فاعلية مشاركة الضيوف فيه، يدل بوضوح على أن الأستاذ مالك بن نبي كان ولا زال معروفا خارج بلاده الجزائر، أكثر مما كان معروفا بداخلها، وليس من المنطقي أن يتأتى له ذلك لو لم يكن كبير العناية بشؤون المسلمين، مهموما بمشكلاتهم واضعا يده على عوامل تخلفهم وشروط نهضتهم، مشخصا العلل ومقترحا سبلا للعلاج، واصفا لذلك ما يلزم من ضرورات الحمية والدواء.

وهل يمكن أن يكون لأفكار مالك ما كان لها من مكانة بين أهالي أكثر من إقليم في بلاد العرب والمسلمين وغيرهم، في إفريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا وغيرها ــ كما تصور جزءا من ذلك قائمة المشاركين في هذا الملتقى ــ لو لم تكن اهتماماته قد تجاوزت حدود الدائرة المحلية (وطنه الصغير) إلى (وطنه الكبير) العالم العربي الإسلامي، إلى (وطنه الأكبر) العالم أجمع والإنسانية قاطبة؟

٧ــ يزعم حضرة الأستاذ أن مالك حاول أن يسجل في شهادة الدكتوراه تحت إشراف المستشرق (لوي ماسينيون) صاحب فكرة (فرانس إسلام) ولكنه لم يفلح في ذلك!

فماذا عن هذه (الغمزة؟) وما ذا عما يريد صاحبها أن يتوخى من ورائها؟

يمكن مناقشة ذلك من الوجوه الآتية:

أ ـــ لعل من أول ما يمكن أن يستخلص من هذه الراوية أن (بعضنا) اليوم في عالمنا العربي يعطي لهذه الشهادة (الدكتوراه) مكانة علمية ما بعدها من مكانة من العلو والرفعة، وكأن هؤلاء يرون بذلك أن الدرجة الرفيعة في سلم المعرفة والمكانة المرموقة في فضاء الفكر والعلم لا ينالها وليس جديرا بها، إلا من كان (دكتورا!) أما من لم يكن كذلك، وكان عالما نحريرا، ومفكرا مستنيرا، وباحثا محققا، ودارسا لامعا، فإنه ـــ لا يمكن أن يحسب من بين حضرات (الدكاترة) المحترمين الذين يكونون بتلك الشهادة، قد حازوا العلم من جميع أطرافه وأخذوا بمفاتيح الفكر من كل أبوابه.

وماذا يمكن أن يقال ـــ انطلاقا من هذا القسطاس غير المستقيم ـــ أمام ما يقرره التاريخ ويقره الواقع، من أن معظم علماء الأمة المتقدمين وبعض المعاصرين منهم قد بلغوا شأوا بعيدا على سلم العلم والمعرفة، وما كان من أحد منهم (دكتورا!)

ب ـــ إن الأستاذ قد انفرد بهذه الرواية و لم يقل بها أحد غيره ـــ فيما أعلم ـــ من دارسي مالك ولا تلامذته ولا معارفه من داخل الجزائر أومن خارجها، ومن يكون صاحب هذه الرواية حتى يخصه مالك وحده بها من دون عباد الله؟

ج ـــ يؤكد حضرة الأستاذ أنه سمع هذه الرواية من الفقيد ذاته (في أمريكا)، وليس في بلده الجزائر، أو في غيره من بلاد العرب والمسلمين التي قضى ببعضها ردحا من عمره، وأما زمن هذه الرواية، فكان سنة ١٩٧٢، أي قبل عام واحد من وفاة مالك رحمه الله.

وهل من دلالة لهذه المفارقة بين ذاك المكان القاصي، وهذا الزمان الداني؟

ولعل مما يمكن أن يقرب من وجه الحقيقة في هذه الإشكالية، أن بعض دارسي مالك يؤكدون أن الفقيد حاول أن يسجل في معهد الدراسات الشرقية في باريس، وليس في شهادة (الدكتوراه) كما جاء في تلك الرواية.

د ــ ومما يستحسن ذكره في هذا المضمار، أن ذلك المعهد ليس من اختصاصه الدقيق ــ فيما أعلم ــ التدريس في قسم الدكتوراه، وإنما يقتصر دوره أو يكاد ــ كما هو واضح من اسمه ــ على تدريس اللغات الشرقية، ومن ثم فلا المعهد المذكور يدرس تلك الشهادة، ولا الفقيد كان يهدف لذلك، حتى يستدعي منه ذلك البحث عمن يشرف على بحثه!

وإذن فإن الفقيد لم يكن بحاجة إلى من يشرف عليه، لا (ماسينيون) ولا غيره، وإنما كان (ماسينيون) يشرف يومئذ على إدارة المعهد السابق الذكر التي لم تسمح لمالك بالتسجيل في حدود اختصاصها (قسم الدراسات الشرقية).

بيد أن هذا الرفض شهادة لها قيمتها من هذه الدوائر التي تعرف الأستاذ مالك وأفكاره حق المعرفة، كما تدل هذه الشهادة من نحو آخر، عما يتميز به مالك مما لا يروق لتلك الجهات، من قوة شخصيته، وأصالة ثقافته، وعمق أفكاره وعظيم إخلاصه في خدمة أمته، وصدق وفائه لمسيرتها ماضيا، ولجهادها حاضرا و لتطلعاتها مستقبلا، مما يجعله يستعصي على عمليات التغريب والاستلاب، هذه العمليات التي هي من أبرز ما تسهر تلك الدوائر على إخضاع الطلبة من أبناء المسلمين لتأثيراتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، في محاولة منها لسلخهم عن مميزاتهم الثقافية وخصوصياتهم الحضارية، وحملهم على التنكر لهذه ولتلك، ومن ثم كانت تلك الدوائر لا تريد أن تغامر بوجود واحد مثل مالك بين طلاب معهدها، وذلك لجملة من المحاذير لعل من أبرزها هاذين المحذرين اثنين:

١ــ أما الأول فهو إدراك تلك الدوائر أنها لا تستطيع أن تصل من مالك إلى أهدافها، وإذن فلا حاجة لها به.

٢ــ وأما الثاني فإنها تخشى من أفكاره على أهدافها، لما تعرف من قوة فاعليتها.

ويمكن أن يستخلص مما تقدم، أن عدم قبول مالك بهذا المعهد، إنما كان من عناية الله به وتوفيقه له، ولعله لو كان قد التحق بتلك المؤسسة لكان لذلك تأثيراته السلبية عليه، ولكان مالك الطالب بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، غير مالك الذي صرفته عناية الله عن الالتحاق بذلك المعهد، وهيئته في الوقت ذاته ليتجه وجهة أخرى أسلم وأقوم، فيكون (شاهد القرن) على حلقات الصراع الذي دار بين أمته، وبين الغزاة المعتدين، دفعا للظلم، وذودا عن الحق وأن يكون من نحو آخر، مؤرخا لما قام به الغرب من حملات القمع والإرهاب، والتفرنج والاستلاب، ضد أمم الشرق في العصر الحديث.

وقد تحدث كثير من الدارسين عن الآثار الخطيرة التي لحقت بكثير من أبناء المسلمين المنتسبين للتعليم الأجنبي، وكان من بين من أشار إلى ذلك من الباحثين الجزائريين الإمام عبد الحميد بن باديس.[٤]

وقد قسم الإمام هؤلاء المتعلمين إلى أقسام ثلاثة، كانت الأمة قد خسرت منهم الثلثين، وسلم من أدواء الاستلاب الثلث الباقي، وكان من بين السالمين من أفراد ذلك الثلث، الأستاذ مالك وأمثاله.

٨ـ عدم توزيع المحاضرة على المشاركين في الملتقى: كانت مداخلة حضرة الأستاذ من بين الأعمال التي لم توزع على الحضور، ومن ثم فقد كان اعتماد الكاتب في تحرير هذه الكلمة حولها على السماع وحده حين إلقائها، ويمكن لذلك أن يكون قد فات الكاتب شيء من المحاضرة.

ونبادر بالقول أن الأستاذ لم يرسل محاضرته إلى الهيئة المنظمة للملتقى قبل مجيئه، كما أنه لم يسلمها إلى المشرفين على الملتقى حين مجيئه، مع أن المحاضرة كانت بين يدي حضرة الأستاذ مكتوبة وهو على المنصة وقد ألقاها قراءة، فما المانع إذن من تسليمها في الحين للمعنيين لتطبع ثم توزع تعميما للفائدة؟

---

٤ ابن باديس: جريدة البصائر ع: ١٠٩ (٢٢ أفريل: نيسان ١٩٣٨).

إن الظاهرة مدعاة للتساؤل، وليس لها من جواب شاف في الوقت الراهن، وإلى أن يحصل شيء من ذلك، يمكن النظر في ذلك من هذه الوجوه:

أ ـــ كيف تسمح المكانة العلمية لكبار مثقفينا بأن يسافر أحدهم للمشاركة في ملتقى دولي فيطوي في طريقه إلى ذلك آلاف الأميال، دون أن يكون قد أرسل عمله مسبقا بإحدى وسائل الاتصال الحديثة؟ تلك الوسائل التي هي في حقيقتها ليست من ابتكارنا، وإنما صنعها لنا غيرنا، فأصبحنا نملكها في إطار (ظاهرة التكديس وليس بفعل عملية البناء)، كما فعل اليابانيون وغيرهم، ممن وقفوا من حضارة الغرب موقف (التلميذ) من الأستاذ، وليس كما فعلنا نحن ـــ وما نزال ـــ بوقوفنا من تلك الحضارة موقف (الزبون) المترف المسرف الجشع الذي لا يتحرك في غالبية أحواله في هذا المضمار إلا ليشبع شهواته ونزواته، أكثر مما يستهدف شيئا آخر.

وكان الأستاذ مالك قد تناول (ظاهرة التكديس) هذه بالدراسة في بعض كتبه،[٥] وعالجها من بين ما عالجه من مشكلات الحضارة التي تتخبط في (معضلاتها) أمتنا ـــ وما تزال ـــ والتي بلغنا فيها (شأوا بعيدا) وضربنا فيها للناس (المثل).

وقد أمسينا نملك (بفضل) تلك الظاهرة بعض تلك الوسائل الحديثة، ولكن كثيرا منا ـــ مع الأسف ـــ يزهد في استخدامها، ومن لا يزهد في ذلك لا يحسن استخدامها، وكلا الاحتمالين وارد، كما تصوره الوقائع و السلوكيات اليومية في الميدان.

ب ـــ إن من نافلة القول التذكير بأن ما يجري به العمل في مثل هذه الملتقيات العادية منها، بله الدولية، أن يرسل المحاضر عمله مسبقا حتى يطبع ويوزع على الحضور قبل إلقاء المحاضرة أو أثناء ذلك، وإن هذا ما يلتزم به (الآخرون) أولئك الذين غلبونا على أمرنا فأذلونا في عقر دارنا بما تميزوا به في جميع مظاهر حياتهم من استخدامهم للعقل والمنطق في أعمالهم وأبحاثهم وإقبالهم على طلب العلم بمنهجية

---

[٥] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص٥٧.

وجدية، والتزامهم بالنظام واحترامهم الوقت، وإتقانهم العمل وغير ذلك من مقومات السلوك الحضاري الذي أخذوا به، فأخذ بأيديهم على طريق المدنية الحديثة، ومكنهم من السيطرة على آليات العلم الحديث، وشجعهم تفوقهم المادي هذا على الهيمنة على شعوب البلاد الضعيفة والأمم المستضعفة (كحال أمتنا اليوم). وقد كنا قد سبقنا بالأمس غيرنا إلى ذلك السلوك الحضاري وإلى المدنية والإنسانية، يوم أن كنا نمثل العالم الأول، بما أكمل الله لنا من تعاليم ديننا وأتم علينا من نعمته ورضي لنا الإسلام شرعة ومنهاجا. فأين نحن من ذلك؟ وقد أصبح فينا من يخجل بأن يجهر بالالتزام بما جاء به ديننا الحنيف من تعاليم ومبادئ وفضائل، وأمسى في ذلك من الزاهدين، فكان من نتيجة ذلك أن تراجعنا عن مكانتنا التي كانت لنا في مقدمة الأمم الحية إلى المكانة التي أمسينا جديرين بها، مع المتخلفين القاعدين في مؤخرة الأمم.

ج ــ قد يحدث أن يتعذر على أحد المشاركين في إحدى الملتقيات أن يرسل عمله قبل قدومه إلى الملتقى، فيمكنه في هذه الحال الاستثنائية أن يصحبه معه حين مجيئه فيطبع ويوزع في الوقت المناسب، ولكن الذي كان من حظ هذه المحاضرة، والذي قام به صاحبها، لا هذا ولا ذاك والله المستعان.

د ــ ومما يحسن التذكير به أن هذا السلوك لم ينفرد به الأستاذ القادم من أرض الكنانة وحده وإنما شاركه فيه غيره من بين أهل الدار، مما يمكن أن تقاس المسافة بين إقامتهم، وبين مقر الهيئة المنظمة للملتقى بالأمتار، وليس بآلاف الأميال...!

وإذن فقد تساوى في هذه الظاهرة (مثقفونا) في مغربنا وفي مشرقنا، وقد أمسينا في ذلك سواء، وقد قال من قبل شوقي:

نصحت ونحن مختلفون دارا　　　ولكن كلنا في الهم شرق

ويبدو أن هذه المقولة ما تزال صحيحة فينا، ولعلها أمست أكثر انطباقا على أوضاعنا وقد ازدادت هذه الأوضاع على أرض الواقع سوءا، كما ازدادت أمتنا على الناس هوانا.

وإنه لمن المنطقي أن يترتب على هذه الزيادة في معنى التردي زيادة في مبنى تلك المقولة ولاشك أن شوقي ـــ رحمه الله ـــ لو كان بيننا في هذا الزمان، لفعل ذلك ولأمست تلك المقولة حينئذ ـــ مع الاعتذار للخليل بن أحمد ـــ (ولكن كلنا في الهم شرق وغرب!)

فأين نحن بعد، من المنهجية والروح العلمية والفاعلية والحركية، والالتزام بالنظام وحسن استثمار الوقت والجهد، وغير ذلك من الفضائل السلوكية والقيم الحضارية التي غرسها في قلوبنا و في عقولنا، في أفعالنا، وفي أقوالنا، وفي جميع مظاهر حياتنا منذ فجر الدعوة الإسلامية ديننا الحنيف، وتمثلها أفعالا وأقوالا في الواقع اليومي المعيش أوائلنا الأطهار، وسار من بعدهم على هذا النهج عبر التاريخ الأعلام الثقاة، ومن بينهم الأعلام الرواد في عصرنا الحاضر هؤلاء الذين قضوا أعمارهم ـــ والفقيد مالك واحد منهم ـــ ينادون بالالتزام بتلك السلوكيات الحضارية ويتمثلون هم أنفسهم بها في أفعالهم ميدانيا، ويحرصون على غرس بذورها في ذهنية أبناء الأمة وفي سلوكهم بالقول و بالفعل، بالنصيحة وبالقدوة، بينما اكتفى بعض مثقفينا المعاصرين بالتغني بها وبمطالبة غيرهم (الأحفاد) بالالتزام بها، وهم عن بعضها معرضون، ولعلهم لها ناكرون.

هـ ـــ ويحسن التذكير بعد أن المحاضرة (موضوع النقاش) في هذا الحوار، إنما كان عنوانها: (من القصد إلى الفعل..) فهلا تساءلت أيها القارئ الكريم بعد هذا الذي مر بك من وجوه الحوار: أين نحن من ذلك القصد؟! وأين نحن من ذلك الفعل؟